MESR
منار الشرق للدراسات والأبحاث
Manar Elsharq for Studies & Research

Middle East Journal of Legal and Jurisprudence Studies
Homepage: http://meijournals.com/ar/index.php/mejljs/index
ISSN 2710-2211 (Print)
ISSN 2788-4694 (Online)

مجلة الشرق الأوسط
للدراسات القانونية والفقهية

الانثروبولوجيا السياسية للجماعات الدينية العراقية – صناعة الأيديولوجيا

د. مرتضى محمد رسول علي

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي–دائرة التعليم الجامعي الأهلي

E-mail: murtadha.muhammed90@gmail.com

استلام البحث: 2024 /01/16	مراجعة البحث: 10/03/2024	قبول البحث:15/03/2024

الملخص:

يتأسس البحث على سبر الاغوار النظرية للبنية الثقافية – العقائدية التي تنتج التوجهات الأيديولوجية للجماعات الدينية، حيث تناول البحث أثر التكريس الديني في التوجه الثقافي لهذه الجماعات وما يتخلله من ممارسات سلوكية وخطابية، تُحيل الى صيرورة التشكلات الثقافية لهذه الجماعات بمظهرها الديني، وكيف يأخذ هذا المظهر تأويلات فكرية وخطابية تؤدي الى تكوين الأطر الأيديولوجية لهذه الجماعات لتتولى هذه الأخيرة، أي الأيديولوجيا صناعة او إعادة صناعة الواقع المعاش لسلوكيات هذه الجماعات.

الكلمات المفتاحية: الجماعات الدينية – الثقافة – الخطاب – الأيديولوجيا – السلوك السياسي.

Abstract:

The research is based on the comprehensive depths of the cultural-leadership structure that produces the ideological orientations of religious groups, The research dealt with the impact of religious devotion on the cultural orientation of these groups and the behavioral and rhetorical practices that permeate it, which refer to the process of cultural formations of these groups with their religious appearance, and how this appearance takes on intellectual and rhetorical interpretations that lead to the formation of the ideological frameworks of these groups for the latter to take over, i.e., ideology is an industry or Recreating the lived reality of the behaviors of these groups.

Keywords: Religious groups - culture - discourse - ideology - political behavior

المقدمة:

ان دراسة الجماعات الدينية بشكل عام والعراقية على وجه الخصوص تتطلب الوقوف على بُعدين أساسيين لفهم البنية الثقافية – العقائدية التي تشكل الاطار الأيديولوجي لهذه الجماعات, ويتمثل البعد الأول في بحث الجانب الثقافي الكائن في البنية الاجتماعية لهذه الجماعات والمتجسد عبر طقوس وممارسات واعراف اجتماعية معينة, اما البُعد الاخر لهذه الجماعات فيتمثل في فهم النص الديني ومسارات اخضاعه للتأويلات الثقافية التي تشكل البنية التمثلات السلوكية والفكرية لهذه الجماعات على ارض الواقع, وبين هذه البعدين الثقافي والنصي ينطلق البحث لسبر اغوار البناء الأيديولوجي لهذه الجماعات وفق منهج الفهم الذاتي الذي نأمل من خلاله إعادة تشكيل الصورة الأيديولوجية لهذه الجماعات, وتأسيساً على ذلك فقد عالج البحث في المبحث الأول مطلبين أساسيين, حيث يتمثل الأول التكريس الديني الكامن في البعد الثقافي بما يطوي علي مصطلح التكريس من عملية تنظيمية – قصدية للطقوس والممارسات الدينية التي تحيل الى تشكيل تصور ثقافي متكامل عن الذات وعن الاخر , في حين تناول المطلب الثاني التشكلات الثقافية لذهنية الجماعات الدينية بمعنى كيف احالت عملية التكريس ذهنية هذه الجماعات الى اطار فكري –

ثقافي يتحرك وفق محددات دينية معينة منبثقة من الثقافة, وعلى اثر ما تقدم جاء المبحث الثاني الذي يتناول الممارسات السلوكية ذات الطابع الأيديولوجي, حيث عالج المطلب الأول ماهية الادلجة الدينية لهذه الجماعات, في حين عالج المطلب الثاني التجسيد العملي لهذه الأيديولوجية على ارض الواقع السياسي الذي تضطلع به هذه الجماعات, وجاءت على اثر ذلك نتائج الدراسة التي تعبر عن مجمل ما جاء في البحث لتشكل خاتمة البحث وتحيل في ذات الوقت إمكانية التنضيج والاستكمال لدراسة فكر هذه الجماعات في البحوث القادمة

- كيف تُسهم البُنية الثقافية في تأويل النص الديني؟
- هل هناك تأويل واحد للنص الديني وتمثلات سلوكية متعددة؟
- كيف يتم توظيف الأيديولوجيا في الخطاب السياسي – الديني لهذه الجماعات؟
- كيف يسهم البناء الأيديولوجي لهذه الجماعات في الحفاظ على ديمومة وجودهم السياسي؟
- ما هو المستقبل السياسي لهذه الجماعات وفق المتغيرات العالمية الراهنة؟

مشكلة الدراسة:

تتجلى مشكلة الدراسة في وجود تداخل ما بين البنية الثقافية والبناء الديني لهذه الجماعات وكيف يضفي البناء الديني لهذه الجماعات طابعه المذهبي – الطقوسي على التمظهرات النهائية للأيديولوجية التي تمارسها هذه الجماعات عبر سلوكها السياسي الاني والمستقبلي, فضلاً عن ذلك فإن هناك بعداً تاريخياً شائك التعقيد ينبغي الوقوف عليه ومحاولة تفكيكه وفق منهج الفهم الذاتي باعتباره المنهج الذي يحاكي ذهنية هذه الجماعات ويفهم سلوكن من خلال تصوراتهم عن انفسهم وعن عقيدتهم وعن الاخرين الذين يعتبرون من وجهة نظرهم مغايرين ان لم نقل مخالفين لاشتراطات صواب الديني .

أهمية الدراسة:

تأتي أهمية الدراسة من وجود هذه الجماعات على ارض الواقع الاجتماعي والسياسي للعراق بشكل خاص وبعض بلدان الشرق الأوسط بشكل عام، وتأسيساً على ذلك لابد لنا من محاولة فهم الأطر المرجعية لهذه الجماعات الوقوف على سلوكها الذي تمارسه على ارض لواقع بهدف استبصار المستقبل السياسي لهذه الجماعات وكيف يمكن ان يؤثر ذلك على مصير المجتمع وطبيعته الاجتماعية والثقافية.

هدف الدراسة:

تبعاً لما ورد أعلاه فإن الهدف من الدراسة يستقصي الوقوف على مكامن النجاح والفشل السياسي والاجتماعي لهذه الجماعات على ارض الواقع الوقوف على جانب من الانتقادات الموجهة إليهم باعتبارهم امضوا ما يزيد عن عقدين في إدارة الشؤون السياسية والاجتماعية والثقافية في الحكم.

منهجية الدراسة:

بما ان علم الانثروبولوجيا يستشف معطياته التحليلية من الميدان حصرا فقد أصبحت فرضية الدراسة سالبة بانتفاء موضوعها تبعاً لمنهج علم الانثروبولوجيا، وعوضاً عن ذلك فقد تبنت الدراسة المنهج الوصفي بحكم الحتمية المنهجية لعلم الانثروبولوجيا لاستخدام هذا المنهج وذلك لوصف حيثيات البعد الثقافي فضلاً عن تمظهرات البعد الأيديولوجي لهذه الجماعات، في حين يجيء استخدام منهج الفهم الذاتي لتحليل البنية الكامنة للتشكلات السياسية وتمثلاتها لدى هذه الجماعات.

المبحث الأول

إثر الدين في البعد الثقافي للجماعات الدينية

- المطلب الأول/ التكريس الديني لثقافة الجماعات السياسية:

بدأت الظاهرة المعروفة بالإسلام السياسي تتمظهر مع بدء النهضة الدينية – السياسية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وهي تتمظهر من خلال فرض الالتزام العالي بالتقاليد الاسلامية العامة كالحجاب ورفع الاذان ومظاهر طقوس ممارسة العقيدة

التي تقع تحت وطئة الأنظمة السياسية – الإسلامية، بيد ان ما تقدم يختلف عن الواقع الحالي للإسلام السياسي. (**Esposito, 2000, p50)**

ويُعتبر الخطاب الديني الوسيلة الأساسية والأكثر تأثيراً في تكريس المبادئ والقيم والأعراف الثقافية، وهو ليس مجرد كلمات وأفكار إنما يستدعي هدفاً ورؤية وآلية. حيث ينبغي في دعاة الدين أن يكونوا مؤهلين فكرياً وثقافياً، ومتقنين لفن الإصغاء والحوار، لفهم ثقافة مجتمعهم والتأثير فيها حتى يحاكوا عقولهم وقلوبهم. (حمود, 2017, ص5)

ففي حين ان كل مجتمع يتكون من مجموعة الأنظمة التي تتشكل نسقا كاملا من العلاقات المتبادلة بينها. فالدين هو واحد من تلك الأنظمة الاجتماعية، بل هو من أهمها، إذ إنّه إلى جانب أدائه لوظائفه يسهم في تشييد الأفكار وبنائها، وبناء الأفكار العامة، والمبادي الرئيسية لباقي الأنظمة الاجتماعية الأخرى كالنظام السياسي، والاقتصادي والتعليمي والثقافي للمجتمع، وربطها ببعض عن طريق خلق الأهداف المشتركة فيما بينها، والتي لا يمكن تصورها، وتحققها بدون الدين. وحتى إن بعض العلماء والفلاسفة يعبرون عن الدين بأنه هو المجتمع نفسه، ولا يمكن تصوّر أي مجتمع من دون الدين. حيث ان الدين يرتبط بثقافة المجتمع ارتباطا مباشرا، ويؤدي أدوارا في حياة الإنسان الاجتماعية والثقافية، فيدخل في طريقة تفكيره، وإدراكه وأسلوب حديثه عن العالم الذي يعيش فيه. **(عبد القادر, 2022, ص104)**

من جهة أخرى، لا تتفق الأديان أو أتباع الدين كلهم في فهم واحد للهوية الدينية. فهي بالنسبة للبعض مجرد هوية ثقافية أو ثقافية – قومية موروثة: فالإنسان ينتمي لهذا الدين أو ذاك فقط بحكم مولده ضمن جماعة هذا الدين؛ إنها إحدى وقائع الحياة كالهوية العشائرية التي لا يمكن تغييرها بسهولة دون الإحساس بالخيانة أو الخسارة لأعضاء الجماعة الدينية الآخرين. وهي بالنسبة للبعض الآخر مسألة إيمان شخصي – خيار شخصي. وتتخذ الأديان والجماعات المختلفة ضمن الدين الواحد مقاربات مختلفة تجاه هذه المسائل. **(المؤسسة الدولية للديمقراطية والانتخابات, 2014, ص9)**

ويعد الخطاب الأداة الرئيسية للجماعات الدينية – السياسية فهو ليس خطاباً دينياً فقط وان تضمن دلالات دينية. بل انه خطاب سياسي وممارسة اجتماعية تطال المتصور الاجتماعي في النظريات والمعتقدات والايديولوجيات، فيما يعتقد الناس انه حقيقي، ويستخدم الخطاب الاستراتيجيات للتعبير عن الرغبة والحاجة في التأثير في الآخرين ضمن علاقات قوة تهدف الى الاقناع (والاقتناع), لأنه كام يقول باتريك شارودو "كل خطاب هو نقطة تقاطع بين حقل الفعل السياسي (مكان التبادلات الرمزية، الحقل المنظم حسب علاقات النفوذ والقوة فيه كما يقول العالم الاجتماعي "بورديو") وبين حقل المنطوق السياسي (مكان الكلام المستخدم مرجعيات وتصورات بين الفاعلين السياسيين)", ويعتمد الخطاب السياسي لدى الجماعات الدينية – السياسية في فعل الاقناع على موقع المتكلم وايضاً على العاطفة أي الحجاجية من خلال التأثير العاطفي ومن خلال اثارة الغريزة (الدينية). **(صدقة، نادر، ميخايل, 2015, ص11)**

ويعتمد الخطاب السياسي – الديني على استراتيجية تظهر الآخر (الخصم) واقواله واعماله ضمن منظومة الشر وتظهر الذات واقوالها واعمالها ضمن منظومة الخير، وبالطبع القراءة واحدة وقاطعة اي ليست متعددة وغير قابلة لإعادة القراءة، فالدين ليس نهج افكار وحسب، بل هو قبل كل شيء نهج قُوى ... وميزة الدين هي التأثير المقوي للطاقة الذي يمارسه على الضمائر. ان الدين يؤثّر في طرق التفكير في المجتمع خصوصاً في الدول ذات الثقافة الدينية، وفي ظل الصراع المذهبي والتطرف الديني الذي يعصف بالعراق ومنطقة الشرق الأوسط بشكل عام فلابد للخطاب سياسي ان يحمل ابعاد الصراع الديني فهو تارة يدافع عن الطائفة وتارة أخرى يستقطب عواطف الناس من خلال اظهار مظلوميتهم التاريخية وتارة يستقطب الناس من خلال اظهار صواب موضوعه المطلق **(صدقة، نادر، ميخايل, المصدر السابق, ص32,30).**

وتباعاً فإن الثقافة السياسية لمجتمع ما هي بمثابة الخريطة الذهنية التي تحدد صورة الفرد كفاعل سياسي مقارنة بغيره من الفاعلين، وتحدد صور العلاقة بينهما ونوعية الأفعال وردود الأفعال المتوقعة من جانبهم. فهي تؤثر في سلوك الناس سواء أكانوا مواطنين أم قادة أثناء قيامهم بأعمالهم السياسية، أو استجابتهم لإحداث سياسية. ويطلق البعض على الثقافة السياسية للنخب

الحاكمة الثقافة الرسمية أو ثقافة الحكام، بينما ثقافة العامة تعتبر ثقافة المحكومين، ونظرا لما تمتلكه النخب الحاكمة من أدوات قهر ممثلة بالسلطة، وموارد فإنها تعتبر مسؤولة إلى حد كبير عن نمط الثقافة السياسية السائدة في مجتمعاتها عبر إشاعة القيم المحبذة لديها، فالنظم السياسية الديموقراطية تعمل على إشاعة القيم المعززة للديموقراطية، بينما يكون هم الأنظمة الثيوقراطية إشاعة القيم التي تكفل ديمومة هذه الأنظمة. **(سمحة, 2005, ص114)**

وربطا بما تقدم نعتقد ان الجماعات الدينية المسيطرة على النظام السياسي في العراق وفي الشرق الأوسط عموما تعتمد خطاباً دينياً–طقوسياً يحاكي حالة التدين الشعبي لأغلب افراد المجتمع وهي عبر هذا الخطاب تعمل على تكوين تصور إيجابي من خلال محاولة غرس صورة المنقذ السياسي – الديني في ذهنية المجتمع واشتقاقاً من ذلك تصوغ عوامل ديمومتها السياسية وسطوتها الدينية, بيد ان ما لا تدركه هذه الجماعات ان القرن الحالي شهد زخماً قوياً لتعدد مصادر الثقافة الاجتماعية وذلك بفضل الانتشار الكاسح لمواقع شبكة الانترنت المعنية بالتواصل الاجتماعي مما أدى الى تغير حالة المزاج الاجتماعية العامة تجاه الدين بطريقة سلبية تمثلت بولادة فئات اجتماعية لا دينية, بمعنى انها تسلم بوجود ووحدانية الله دون ان تعتقد بصواب المؤسسة الدينية او الفاعلين الدينين (يقين بلا معبد), وبالتالي لعل ذلك ما يجعل أنظمة الحكم الدينية – السياسية ضمن النطاق الوجودي تتعرض لهزات اجتماعية وثقافية داخلية بين فترة وأخرى وتتسم غالباً بحالة عدم الاستقرار فضلاً عن سبب مهم جدا وهو ان فلسفة العقيدة السياسية لهذه الجماعات الحاكمة هي فلسفة لاهوتية في حالة شحن وصدام مستمر بدعوى إعلاء دين الله, وليست فلسفة وجودية تعتبر رفاهية الانسان هو جوهر وجودها ووسيلتها وهدفها.

المطلب الثاني

التشكلات الثقافية لذهنية الجماعات الدينية:

تُعد الثقافة مفهوم اجتماعي يعكس مدى معرفة المجتمع للمنظومة الاجتماعية التي يعيش فيها، من عادات وتقاليد وأعراف ونظم سائدة، ومن هنا نشأ التلازم والتداخل بين الثقافة وذهنية الجماعة، خاصة بعد أن تحول الاهتمام والنظر إلى الثقافة من البعد الفردي إلى البعد الاجتماعي، وعليه حاول توماس إليوت البحث عن المعاني المتعددة لكلمة ثقافة، فارتباطات هذه الكلمة – كما يقول– تختلف بحسب ما نعنيه من صلة لها بنمو فرد، أو نمو فئة أو طبقة، أو نمو مجتمع بأسره. لكن الأساس عنده هو ربط معنى الثقافة بالمجتمع، لأن ثقافة الفرد في تصوره تتوقف على ثقافة الفئة أو الطبقة، وثقافة الفئة أو الطبقة تتوقف على ثقافة المجتمع كله والذي تنتمي إليه تلك الفئة أو الطبقة. **(جامعة 8 ماي، 2015, ص13)**

وتأسيساً على ما تقدم فان الثقافة بما تحتويه من مرتكزات نفسية ومعنوية وفولكلورية وعقائدية فإنها تعد المصدر الأول لتشكل الصورة الذهنية لدى الفرد والجماعة.

ويقدم "ستيوارت. أي. سكوت" تعريفه للصورة الذهنية في إطار النظريات الإدراكية فيقول: صورة الأمة الذهنية (أو أي شيء أخر) تتشكل من مجمل الخصائص التي يدركها الفرد أو (يتخيلها) وهي محتوى لثلاثة مظاهر تحليلية، الأول والأساس هو مجموعة الخصائص المعرفية " الإدراكية " التي يفهم المرء بها بطريقة عقلانية. والثاني المكون التأثيري " العاطفي" متمثلا بتفضيل أو عدم تفضيل الشيء المعني وثالثا وأخيرا المكون الحركي" السلوكي "الذي يضم مجموعة الاستجابات العملية التي يعتقد المرء أنها ملائمة للشيء المدركة صفاته مسبقا" **(الجبوري, 2010,ص165)**.

ويشير قاموس وبستر الى ما تقدم أعلاه بتفصيل اكثر, حيث يعرف مفهوم الصورة الذهنية او ما يصطلح عليه بالانجليزية (mage) على انها **((**مفهوم عقلي شائع بين افراد جماعة معينة يشير الى اتجاه هذه الجماعة الاساسي نحو شخص معين ،او نظام ما، او طبقة بعينها ،او جنس بعينه او فلسفة سياسية، او قومية معينة او أي شيء بعينة**))**, المكون المعرفي للاتجاهات يتمثل في الصورة التي توجد لدى اشخاص, عن بعض الاشخاص والتي توقظ حين استدعائها او تشكلها مشاعر او احاسيس معينة (أي المكون العاطفي) ثم تدفع باتجاه سلوكيات معينة (المكون السلوكي) وبالتالي فهذا يعني ان مكونات الاتجاه هي ذاتها مكونات الصورة الذهنية, فاختلاف الصور الذهنية بين الافراد والمجموعات يعود لاختلاف اتجاهاتهم **(الصفار,2006.ص124)**.

وعلى ما سبق فأننا لا نعيش في اتصال مباشر مع الواقع والحقيقة بل في عالم كبير من التفسيرات والصور الذهنية والنمطية التي هي من صنع البشر، فالعالم المحيط بالإنسان يفوق بكثير قدرته على الإدراك الشخصي المباشر فيلجأ إلى ما هو متعارف عليه من تفسيرات وجهود إنسانية سابقة بذلت لإسباغ هوية على الأشياء في محاولة لفهمهما ومعرفتها فتصبح خبرة البشر خلاصة لـ "معان منمطة منتقاة تشكلها تفسيرات جاهزة وتزودهم جمهرة من شهود العيان الذين لم يلتقوا بهم ولن يلتقوا بهم بتصوراتهم عن العالم وعن أنفسهم ومع ذلك فهذه التصورات التي يوفرها الغرباء تشكل بالنسبة لكل شخص المنطلق الجوهري لحياته" **(الجبوري, 2010, مصدر سابق).**

وتتميز الصورة الذهنية بالتعميم المبالغ فيه، ونظراً لذلك فالأفراد يفترضون بطريقة آلية أن كل فرد من أفراد الجماعة موضوع الصورة تنطبق عليه صورة الجماعة ككل، على الرغم من وجود اختلافات وفروق فردية، والأفراد يستسهلون في إصدار الحكم على الأفراد المناظرين من خلال تصنيفهم ضمن جماعات أخرى، ويترتب على ذلك أن الفئات والجماعات والمهن المختلفة يكون عنها الجمهور صور ذهنية تتسم بالتعميم وتتجاهل الفروق والاختلافات التي قد تكون في بعض الأحيان جوهرية وأساسية. وعلى صعيد متصل فقد أدركت المنظمات والقيادات السياسية أهمية دراسة صورتها السائدة في أذهان الجماهير في وقت معين، واتخاذ السياسات، ورسم الخطط الكفيلة بتكوين هذه الصورة على النحو الذي تتمناه هذه المنظمات أو تلك القيادات، كما برزت أهمية الصورة على المستوى الدولي في تهيئة المناخ النفسي الملائم لتحقيق أهداف الدولة ونجاح سياستها الخارجية، والترويج لأوجه النشاط المختلفة فيها **(العيساوي, 2015,ص45,47).**

واضافة لما تقدم أعلاه فقد توصل علماء الأنثروبولوجيا* الى حقيقة مفادها ان الشخصية تتكون بتفاعل كل من الموروثات البيولوجية والقدرات السيكولوجية والثقافة التي يعيش فيها الفرد، وان الثقافة مسؤولة عن الجزء الاكبر من محتوى اي شخصية الفردية والاجتماعية لمجتمع ما وذلك عن طريق تشديدها على اهتمامات واهداف معينة, بمعنى ان الاشكال السوسيوثقافية الخاصة التي يكتسبها الفرد تمده بالاتجاهات والمعتقدات والاشكال للازمة من السلوك الخاصة بأدواره الاجتماعية التي يشغلها والعادات والقيم المختلفة التي يكتسبها من خلال وجوده في المجتمع الذي يعيش فيه. ونستنتج من ذلك ان عملية تكوين الشخصية هي عملية تعليمية وتثقيفية حيث يجري فيها اندماج خبرات الفرد ضمنً وحدة وظيفية اجتماعية متكاملة تكيفت عناصرها بعضها مع بعض **(حمزة, 2022, ص418-419).**

وتأسيساً على ما تقدم فإن الثقافة تلعب الأثر الأعظم اطلاقا في تكوين الاتجاهات الفكرية لدى الفرد والجماعة, وبما ان الثقافة العراقية تنطوي بشكل كبير على موروث ديني شائك ومعقد ينسحب عبر قرون طويلة ليترسب في الذاكرة العراقية ويتم استنباتها عبر التنشئة في الأجيال المتتابعة فان ذلك ينتج بالضرورة شخصية عامة للمجتمع ذات طابع طقوسي ورؤى خرافية للعالم الخارجي فضلا عن تمسكه بالأساطير كمفسر لكل ما يعجز عن تنظيمه وعقلنته, واذا ما عرفنا ان الصفحات اللاحقة ستتناول البعد السياسي داخل المجتمع فلا بد من الإشارة الى ان الأحزاب الدينية وايديولوجيتها جاءت مبتسرة من التراث الديني المترسب داخل البنية الثقافية للمجتمع وبالتالي فهي بطريقة او بأخرى متماهية معه, بيد ان الحديث هنا هو في اطار المجتمع والأحزاب الدينية التي تمثل نسبة كبيرة دون ان نغفل اختلاف بعض الجماعات الفرعية والفئات المثقفة ذاتياً داخل المجتمع العراقي والتي تأخذ الثقافة منحى اخر في تكوين ذهنيتهم.

المبحث الثاني
التمثلات الأيديولوجية للدين في العمل السياسي

(*)
الانثروبولوجيا :معنى الأنثروبولوجيا من حيث اللفظ " علم الإنسان " أي العلم الذي يدرس الإنسان، ولذلك، تعرف الأنثروبولوجيا، بأنها العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن عضوي حي، يعيش في مجتمع تسوده نظم وأنساق اجتماعية في ظلّ ثقافة معينة.. ويقوم بأعمال متعددة، ويسلك سلوكاً محدداً، وهو أيضاً العلم الذي يدرس الحياة البدائية، والحياة الحديثة المعاصرة، ويحاول التنبؤ بمستقبل الانسان معتمدا على تاريخ تطوره الطويل. فالأنثروبولوجيا بوصفها دراسة للإنسان في أبعاده المختلفة، البيوفيزيائية والاجتماعية والثقافية، فهي علم شامل يجمع بين ميادين ومجالات متباينة ومختلفة بعضها عن بعض، اختلاف علم التشريح عن تاريخ تطور الجنس البشري والجماعات العرقية، وعن دراسة النظم الاجتماعية من سياسية واقتصادية وقرابيه ودينية وقانونية، وما إليها .. وكذلك الإبداع الإنساني في مجالات الثقافة المتنوعة **(الشماس,2004,ص14).**

المطلب الأول/ الادلجة الدينية للجماعات السياسية:

كما يتبين مما تقدم, ان تناول فكر الحركات الدينية – السياسية ليس بالأمر اليسير إذ تتعدد اتجاهاتها من جهة وكثرة التأويلات التي طرحت بصددها من جهة اخرى وهي تنطوي على أبعاداً كثيرة ، مما يمنع دراستها ضمن نطاق ضيق اذ لابد من دراستها دراسة عامة تنطلق من تفكيك البنية العقائدية لها مع المرور على بعض النماذج السلوكية المختارة من تلك الجماعات، كما ان المتابع للشأن السياسي العراقي منذ العام 2003 يجد بوضوح صعود ملحوظ للحركات الدينية – السياسية واتساع رقعة خطابها الديني الامر الذي أدى الى توسعة قاعدتها الجماهيرية والفوز بأصوات الناخبين او وصولها لسدة الحكم مقابل انحسار وتراجع للتيارات السياسية المنافسة, التيارات الليبرالية والاشتراكية والقومية, بيد ان ذلك لا ينفي ان بروز هذه الحركات الدينية–السياسية ليس وليد اللحظة، بل يعود ظهورها الى بداية القرن العشرين، إلا ان ظهورها اليوم يختلف عن جميع المراحل التاريخية.**(الزبيدي،2019, ص276,275)**

حيث نعتقد ان تجارب التمرد لعموم الحركات الدينية في المنطقة خلال القرن العشرين التي أدت لوصولها للسلطة لم تنتهي باستلامها زمام ومقاليد الحكم رسميها بل على العكس، انها كرست كافة موارد الدولة لإدامة تمردها ضد كل من لا يطاوعها او ينضوي تحت لوائها بدعوى انها صاحبة الحق المطلق والمدافعة عن الدين والعقيدة الحقة، حيث تغلغلت داخل النظام السياسي لبعض الدول لتشكل بنية باطنية للدولة تنضوي تحتها الكثير من الممارسات الايديولوجية التي تؤثر على التعددية الاجتماعية والثقافية والسياسية باستمرار.

ولا يزال الدين لاعباً رئيسياً في تشكيل السلوك السياسي، فنموذج الدولة القومية لم ينجح في تخليص النشاط السياسي من الدوافع والمطالب والمؤثرات الدينية، في حين يرى البعض أن الدين الإسلامي يقدم نسقا عقيديًا متكاملا، وأيديولوجية لبناء الدولة، والتعامل مع العالم الخارجي، مما يظهر مدى تأثير الدين على السلوك السياسي بوجه عام، وتوجيه الرأي العام بشكل خاص، حيث اضحى للدين تأثير قوي ومحرك للشعوب، خاصة في مناطق الصراعات كالشرق الأوسط والعراق تحديداً **(خميس, 2021,ص13)**.

ولعل ان مرد ذلك هو الانغماس الثقافي – الشفاهي لهذه المجتمعات فضلاً عن التوجيه المتعمد للمجتمع لصياغة إطار أيديولوجي معين يدعم الاتجاه السياسي المطلوب وجوده.

وفي سياق التحليل العلمي للعلاقة بين الدين والسياسة إن الدين في الأصل هو الارتباط عن طريق الإيمان بقوة غيبية لا يستطيع الإنسان إدراكها، ولا يجد سبيلا للانفلات منها لعلاقتها بالوجدان وبالعقل الموجهين للممارسة اليومية تجاه الطبيعة والكون والمجتمع، فالدين يتخذ إذن مستويين، المستوى الأول يتضمن إخلاص العبادة الله المنتج للحرية وهو الذي يعمل على تحقيق كرامة الإنسان، والمستوى الثاني وهو الذي يتحول فيه الدين إلى وسيلة لسلب الحرية وإهانة الإنسان بكافة الوسائل وذلك بفعل التحريف والأدلجة والتوظيف السياسي**(بوارضي, 2017, ص5–6)**.

وفي إطار الحديث عن الجماعات السياسية الإسلامية, فالإسلاميون يرفضون من مختلف المشارب فصل الدين عن السياسة، حيث أنّ مشروعاتهم بالرغم من تنوّعها الظاهري وما تنطوي عليه من تباين الأولويات واختلاف في الخطط المرحلية وبعض التفاصيل الفقهية؛ فإنّها جميعاً تصدر عن رؤية ثابتة للإسلام، تعتقد بشموله كافة مناحي الحياة وشؤون البشر، فهو عندهم "دين ودولة", لذلك لا يعترفون بأي تقسيم يفضي إلى التمييز بين أمور الدين وأمور الدنيا، ولا يقرّون مطلقاً بأن يقتصر مجال الدين على شؤون العبادات والمسائل الروحية وحيّز الإيمان الشخصي, ومن الجدير ذكره، أنّ جماعات "الإسلام السياسي" لدى الشيعة والسنة على السواء، ورغم كلّ ما بين الفريقين من خلافات عقائدية وما يقومان به من تسفيه وتكفير متبادل كثيراً ما بلغ حد الاقتتال الطائفي؛ لكنّهم على قلب رجل واحد عندما يتعلق الموضوع بتسيس الدين وتديين السياسة، ويحاججون بالمنطق ذاته الذي يمزج الحقلين معاً, حيث يتطابق "الإسلام الشيعي" مع شقيقه اللدود، "الإسلام السني" برفضهما القاطع فصل الدين عن السياسة، فضلاً عن تشاركهما القول بشموليّة الإسلام واندراجه في كافة مناحي الحياة. فالمرجع الشيعي الراحل محمد حسين فضل الله، على سبيل المثال، ورغم معارضته تولّي "الولي الفقيه" الولاية السياسية العامة وفق النموذج الخمينيّ وتبنيه الرأي القائل بتقييد صلاحياته؛ فإنّه أكّد استحالة الفصل بين الدين والسياسة، بقوله: "لا يمكن أن يكون هناك دين بدون سياسة، لأن القيم الدينية

CC BY

ليست شيئاً معلّقاً في الهواء، وإنما هي شيء يعيش في عقل الإنسان وقلبه وحركته، ولذلك فإن ديننا سياسة وسياستنا دين **(عزيزة, 2017, ص2-3)**.

وبالتالي فان الجماعات السياسية الإسلامية وباختلاف مشاربها المذهبية تنطلق من رؤية شرعية – سلوكية تعمل على ادامة زخم الأثر الديني في الحياة السياسية بالتالي فإن هذه الزخم ينعكس بطبيعة الحال على توجيه إدراك الناس وفهمهم باتجاه يسمح باستمرار الأنظمة السياسية بصرف النظر عن النجاح الوجودي من عدمه الذي يقع على عاتق هذه الأنظمة بيد ان هذه الاستمرارية متأتية من صبغة المباركة الإلهية التي تمنحها المؤسسة الدينية العليا في بلد ما بطريقة او بأخرى.

المطلب الثاني

التمظهرات النهائية للأيديولوجيا السياسية:

يعتقد المؤرخون وعلماء الانثروبولوجيا ان العلاقة بين الدين والسياسة قد ظهرت منذ ان تَوَحَّدت رموز السلطة ورموز المقدس، وبالتالي فإن هذه الوحدة بين السلطة والمقدس هي وليدة انبثاق المُلكية من الدين الذي يخضع الناس له بسبب قداسته، وان اي عصيان له يعد انتهاكاً للمحرمات وبالتالي انتهاكا لسلطة الملك. **(محي الدين, 2019, ص736)**

ويوضح عالم الأديان الانكليزي "جون ميدلتون" ان البنى الطقسية وبنى السلطة تربطهما علاقة متينة من خلال ديناميكية خاصة التي تصل احداهما بالأخرى، وفي هذا السياق يمكن ان يكون الدين وسيلة للسلطة السياسية وضمانة لشرعيتها، وفي الحين نفسه يمكن ان تكون السياسة اداة بيد الدين لفرض هيمنته. **(محي الدين، نفس المصدر السابق، ص737)**

وبما ان الايديولوجيا تمثل انعكاسا للوجود من منظور المصالح الطبقية ككل – كجملة الأشكال الأيديولوجية – فهي اذاً تعبر عن منظومة الأفكار والآراء للطبقة أو الفئة الاجتماعية الدينية – السياسية... وكشكل خاص للنشاط الفكري، تعتبر الأيديولوجيا السلاح النظري للطبقات عموماً، وفي ذلك تكمن وظيفتها الاجتماعية، وبالتالي فهي جملة الآراء الممنهجة نسبياً، التي يعتبر ارتباطها الوظيفي مع مصالح وطموحات فئة اجتماعية سمتها المميزة، وتدخل فيها أفكار نشأت وانتشرت على أرضية التجربة التاريخية والشروط الحياتية للفئة الاجتماعية المعينة. **(بدران, 2015, ص36)**

وتُعد الجماعات الدينية (الاسلامية) اليوم الحركات الكبرى في القرن الحادي والعشرين بحكم جذورها الممتدة في النسيج الاجتماعي ووعيها بأهمية التنظيم الجيد، ولذا فهي قادرة على تعبئة أعداد هائلة، حيث تقدم أيديولوجيتها حلا بسيطا للأزمات القائمة في المجتمعات المعاصرة – تتمثل في العودة إلى أصول الإسلام الحقيقية، عبر اختزال منظومات قيمية مركبة في شعارات بسيطة. **(براون، حمزاوي، اوتاوا, 2006,ص6)**

الا ان التنظيم الأيديولوجي الذي يؤسس للعلاقة بين الدين والسياسة يختلف من جماعة دينية الى أخرى تبعاً لفلسفتها العقائدية وبشكل عام يمكن حصر هذا التنظيم في اربعة أنواع رئيسية، فيما يتعلق بالأحزاب الدينية الناشطة في العراق تحديدا وهي

أ \ أحزاب تؤمن بولاية الفقيه وترجع دينيا إلى الفقيه الحاكم، وأبرزها المجلس الأعلى للثورة الإسلامية العراق.

ب \ أحزاب تؤمن بدور إشرافي للفقيه، على أساس نظرية ولاية الفقيه العامة أو في إطار الالتزام التقليدي بالمرجعية الدينية، لكنها لا ترجع إلى الفقيه الحاكم، وأبرزها وحزب الفضيلة، والتيار الصدري.

جـ \ أحزاب تلتزم بالإطار الديني لكن من دون دور خاص للفقهاء وأبرزها حزب الدعوة الاسلامية. **(شقير,2006, ص80)**

جـ \ أحزاب تؤمن بمرجعية الاخوان المسلين، وهيئة العلماء المسلمين وأبرزها الحزب الإسلامي العراقي منضوياً تحته الحزب الإسلامي الكردستاني الذي يندرج تحت التصنيف العرقي إضافة إلى تصنيفه المذهبي. **(شقير، نفس المصدر السابق، ص28)**

غير ان هذا الأخير أي الحزب الإسلام كان قد اثار إشكالية أيديولوجية بنيوية في بنائه السياسي – الديني عندما شارك " الحزب الإسلامي العراقي " الممثل لإخوان العراق في مجلس الحكم الذي عينه بريمر ثم في المجلس الانتقالي وكل ذلك في إطار

CC BY

الاحتلال الأميركي!! مما شكل للوهلة الأولى مخالفة صريحة للرؤية الإخوانية ورغم أن قيادة الجماعة أصدرت " تصريحات وبيانات " تتضمن ما يفيد بعدم موافقتها على المشاركة صراحة، سوى ان بعض البيانات والتصريحات الأخرى اعتبرتها " اجتهادا من أهل مكة الذين هم أدرى بشعابها"، ولم يعلن التنظيم الدولي للإخوان وجهازه السياسي عن اتخاذ إجراء ما بحق التنظيم الإخواني العراقي في مثل هذه المخالفة الجلية للمبدأ والتاريخ والواقع الإخواني ككل. **(شقير، نفس المصدر السابق، ص72)**

الا ان كل هذه الجماعات الدينية كانت قد خاضت مناظرات تمثلت في الموقف من الديمقراطية، إذ كان هنالك تيار يرى بالقبول المشروط بها، والتعامل معها كمرحلة انتقالية بديلة أو أفضل من النظام الدكتاتوري، وآخر يرى بالقبول بها بوصفها نظاماً نهائياً للحكم، وبالتعددية السياسية وبتداول السلطة، وفي المقابل، كانت هنالك شكوك من قبل الأنظمة والقوى السياسية الأخرى، في مدى جدية ومصداقية قبول الإسلاميين بالديمقراطية. **(أبو رمان, 2017, ص16)**

ينما كانت ترجح السياسات الأميركية والغربية عموماً من كفة التحالف مع الأنظمة العربية المحافظة – الأوتوقراطية، لضمان مصالح تلك الدول، على المجازفة باختبار البديل الإسلامي غير المضمون، ولا المتوافق أيديولوجيا وسياسياً مع الرؤى الغربية والأمريكية. **(أبو رمان, 2017, ص16)**

في حين اننا نرى اليوم خلاف ما تقدم أعلاه من تخوف دوائر صنع السياسة غربية من الأحزاب الدينية بدلالة وصولها لسدة الحكم في العراق وبعض البلدان العربية الأخرى، ونعتقد ان مرد ذلك يرجع الى تفسيرين رئيسيين, اما ان الغربيون توصلوا الى أسلوب مناورة سياسية تحمل في طياتها مغريات اقتصادية وسياسية كبيرة لهذه الجماعات جعلت منها تتماهى او تتغير ايديولوجيا وبالتالي استمالتها لصالحها, او اصلاً ان هذه الجماعات قررت قبول الديمقراطية قبولاً نفعياً كوسيلة للتخلص من الأنظمة الحاكمة من جهة وتكثيف المكاسب المالية والديموغرافية والعقائدية للوصول الى مناص الأيديولوجيا الإسلامية المنشودة المتمثلة بدولة العدل الإلهي ودستورها الاسلام من جهة اخرى, وفي الحقيقة ان كلا التفسيرين هما مصداق لواقع الحال العراقي على اقل تقدير, حيث استطاعت الأحزاب الدينية الحاكمة على اختلاف توجهاتها الأيديولوجية من تكوين قاعدة جماهيرية واقتصادية عملاقة وقد لا يمكن مجاراتها من قبل التوجهات الأيدولوجية المناوئة (القومية, الليبرالية, العلمانية) في أحيان كثيرة, اننا وبلحاظ الوجود الفعلي لهذه الأحزاب لا يمكن لنا مجانبة الصواب بالادعاء انها أحزاب منخورة وفاقدة للشرعية الاجتماعية نتيجة وصول العراق الى ما وصل اليه من انحدار سياسي ودبلوماسي وعلمي, ولكن قد يكون لاختلال موازين القوى العسكرية والسياسية عالمياً اثراً يكون المقتضى بموجبه تحييد الجماعات الدينية عن دوائر العمل السياسي الرسمية.

وتأسيساً على كل ما تقدم في معطيات بحثنا، فإن النتائج التي توصل لها البحث يمكن تلخيصها في الاتي:

نتائج البحث

أولا تتكون التنشئة الثقافية لهذه الجماعات على مستوى قياداتها وجماهيرها من الأعراف والفولكلور الديني الشعبي الذي يؤسس لتشكيل الصور الذهنية الأولى عن الذات والأخر وبالتالي تؤدي البنية الثقافية متصل فكري – سلوكي باقترانه بالنص الديني الذي تم تؤويله عبر بنية هذه الجماعة

ثانيا/ تنتمي هذه الجماعات في الغالب لبيئة ثقافية مغلقة من الناحية الدينية بفضل التكريس الطقوسي للعقائد الدينية.

ثالثاً/ ساهم هذا التكريس في تكوين بنية دينية محملة بتصورات اجتماعية وسياسية وعقائدية منبثقة من هذه التكريس الشعبي.

رابعاً/ امست هذه البنية الدينية طريقاً مُعَبداً للولوج للعمل السياسي وفق هذه الرؤية الا انها من الناحية الواقعية لم تستطع النهوض بالواقع السياسي والثقافي والعلمي بدلالة انكسا وانحسار الدور السياسي الإقليمي والدولي للعراق بل وحتى المحلي بدلالة التشظي السياسي الذي يعيشه العراق.

خامساً/ لا تنفك هذه البنية الدينية عن اعادة توليد التصورات السياسية التي تشكل المتصل الثقافي – الديني – السياسي بين المجتمع وقيادتهم السياسية.

سادساً/ مع هذه التشظي السياسي وانحسار الأدوار السياسية للعراق على المستوى المحلي والدولي، لا يمكن ان تستمر هذه الجماعات بأنشطتها لا اقل على المستوى السياسي بحكم عدم تناغمها مع النسق العالمي للسياسة الدولية من جانب ومن جانب اخر عدم قدرتها على تلبية الاشتراطات الاجتماعية والخدمية والعلمية لمجتمعها.

التوصيات

أولا/ جاء هذا البحث ليمثل عرضاً علمياً للبعد التاريخي والاني لهذه الجماعات وبناءاً عليه لابد من دراسة تستشرف مستقبل هذه الجماعات على أسس علمية.

ثانيا/ لابد من عقد ندوات وحلقات نقاشية داخل الأوساط الاجتماعية للتعريف بالثقافة السياسية لهذه الجماعات ومقارنتها بالثقافة السياسية العلمية لتبيان الجانب الاصوب من العمل السياسي.

ثالثا/ يشكل هذه البحث بجانب البحوث الأخرى في هذا الجانب المتعلق بالجماعات الدينية – السياسي (السيادينية) فرشة علمية يمكن ان تقديمها لمؤسسات الدولة ذات العلاقة بالتعامل مع فكر هذه الجماعات على المستوى السياسي والأمني والثقافي.

المصادر

1- د. احمد خميس، استخدام الدين في الحياة السياسية، مجلة كلية السياسة والاقتصاد، العدد العاشر – ابريل 2021, جامعة حلوان، مصر، ص13.

2- إرادة زيدان الجبوري، مفهوم الصورة الذهنية في العلاقات العامة، مجلة الباحث الإعلامي، كلية الاعلام – جامعة بغداد، العدد 9-10-حزيران, 2011, ص165.

3- J O H N L. E S P O S I T O, POLITICAL ISLAM and the West, Center for Counter Proliferation Research National Defense, University Washington, DC, Spring 2000.

4- د. جورج صدقة، جوسلين نادر، طوني مخايل، التحريض الديني وخطاب الكراهية، مشروع بناء السلام في لبنان التابع لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، بيروت, 2015.

5- زينة عبد الستار مجيد الصفار، نظرية الصورة الذهنية واشكالية العلاقة مع التنميط، مجلة الباحث الإعلامي، كلية الاعلام – جامعة بغداد، العدد 0-حزيران, 2006.

6- د. سردار قادر محي الدين، العلاقة الانعكاسية بين الدين والسياسة: دراسة في جذورها وطبيعتها، مجلة قه لا ي زانست العلمية، المجلد 4- العدد 3, 2019, الجامعة اللبنانية الفرنسية، أربيل – كوردستان العراق.

7- طارق عزيزة، خطاب الحركات الإسلامية بين الدين والسياسة والآداب السلطانية، منشورات مبادرة الإصلاح العربي، بدائل سياسات 15 تشرين الثاني، نوفمبر, 2017.

8- أ.م. د. طارق عبد الحافظ الزبيدي، أ.م. د. تغرين حنون علي، فكر حركات الإسلام السياسي: دراسة في المقومات والمعوقات، مجلة العلوم السياسية – العدد 54, جامعة بغداد.

9- عمر مصطفى محمد سمحة، العولمة الثقافية والثقافة السياسية العربية، رسالة ماجستير في جامعة النجاح الوطنية – كلية الدراسات العليا، فلسطين, 2005.

10- علي كاظم حمزة، دور الثقافة في تكوين الشخصية دراسة نظرية لإسهامات رواد مدرسة الثقافة والشخصية، مجلة آداب ذي قار، العدد 37, 2022.

11- د. لزهر بوارضي، جدلية الدين والسياسة وثنائية التداخل والتصادم، المجلة العلمية لجامعة الجزائر، العدد التاسع – ديسمبر 2017.

12- محمد أبو رمان، آفاق الإسلام السياسي في إقليم مضطرب: الإسلاميون وتحديات ما بعد الربيع العربي، مؤسسة فريدريش إيبرت، عَمان, 2017.

13- منشورات جامعة 8 ماي، الفرد والثقافة، الجزائر.

14- نيثان ج براون، عمرو حمزاوي، مارينا أوتاوا، الحركات الإسلامية والعملية الديموقراطية في العالم العربي، منشورات مؤسسة كارنيجي للسلام الدولي، واشنطن.

15- نجم عبد خلف العيساوي، العوامل المؤثرة في تشكيل الصورة الذهنية للحزب السياسي في العراق، رسالة ماجستير، جامعة الشرق الأوسط، عمان، 2015.

16- د. هانية مصطفى حمود، منظومة المؤسسات الدينية بين جمود الموروث الثقافي وحركة الواقع، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب اسيا، الأمم المتحدة، بيروت.

CC BY

17- م.م. هدى حمه حسين عبد القادر، أثر الدين على استقرارية المجتمع من خلال وظائفه النفسية والاجتماعية، مجلة دراسات إسلامية معاصرة، العدد 34.

18- ينظر: تحرير: شفيق شقير، الإسلاميون في الواقع السياسي العربي، شبكة الجزيرة نت للبحوث والدراسات، ابريل-2006, ص28.

19- يُنظر: د. شبل بدران، التغيرات السياسية وأثرها على تبدل ايديولوجيات المناهج الدراسية، بحث منشور ضمن اعمال المؤتمر الدولي، حزيران 2015, المركز الدولي لعلوم الإنسان – بيبلوس – لبنان.

20- د. عيسى الشماس، مدخل الى علم الانسان (الانثروبولوجيا)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2004.